البعد الهوياتي للفكر الإسلامي في عصر العولمة

ا.د. محمد مكحلي
جامعة سيدي بلعباس

تقديم :

يبقى سؤال الهوية يحتل مكان الصدارة في الثقافة العربية الإسلامية، بل أصبح ذا حساسية خاصة نتيجة الأوضاع التاريخية والحضارية والمتغيرات الدولية التي تعيشها المنطقة والعالم. حيث تطالعنا وسائل الإعلام يومياً بكم هائل من الأخبار والتحليلات التي تدافع عن الدولة القُطرية أو القومية ، وحقوق ألإنسان وحقوق المرآة.

من طرف آخر نجد من يرى في العولمة قدراً محتوماً لابد من الانصياع له، وإلغاء التمايز والخصوصية الحضارية والتاريخية والاندماج في مجتمع عالمي موحد. لكل هذه القضايا ارتباطات مهمة ووثيقة مع إشكالية " ألهوية التي لم تكن تُطرح قبل عقود ، وعليه يعد موضوعها حديثا في الفكر الإسلامي المعاصر. لهذا صار السؤال مركزياً وأساسياً حول ألهوية في محاولةٍ لفهم الذات والآخر.[1]

يحتل سؤال الهوية اليوم مكانة الصدارة في الحراك السياسي الاجتماعي الثقافي الذي يعيشه العالم ألمعاصر ويكتسب هذا السؤال حساسية خاصة في الثقافة العربية الإسلامية نتيجة للخصوصيات التاريخية و ألحضارية وتبعاً لمترتبات السياسة الدولية والمتغيرات، ومع أن هذا السؤال ذو طبيعة نظرية مجرده إلا أن إفرازا ته تبدو واضحة في متناقضات العصر السياسية و ألفكرية وفي تباين الأنماط الثقافية والسلوكية للناس داخل البيئة الثقافية الواحدة.

على المستوى السياسي تطالعنا وسائل الإعلام بكم كبير من الأخبار والتحليلات التي تتحدث عن ألعولمة والصراع ألحضاري ومحاولات أمركة ألعالم وإلغاء التمايز والخصوصية الحضارية والتاريخية للمجتمعات ألمختلفة كما يحتدم النقاش اليوم حول ما يسمى بظاهرة (الإرهاب)، ومحاولات بعض المفكرين والسياسيين في الغرب نسبة هذا (الإرهاب) إلى الدين الإسلامي وتعاليمه،[2] وما يترتب على ذلك من دعوات إلى تجفيف منابع الإرهاب من خلال تغيير المناهج الدراسية العامة وتعديل التعليم ألديني بل يصل الأمر في بعض الأحيان إلى الدعوة إلى تغييب بعض الآيات من القرآن الكريم التي يرى البعض أنها تحرض على العنف إلغائها. وعدم التعامل معها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى ذالك نشهد احتدام الصراع في مجتمعنا حول طبيعة النظام الاجتماعي والسياسي فهناك من يدعو إلى تطبيق الديمقراطية البرلمانية لأنها هي النظام الذي يحقق العدالة والحريات، وهناك من يدعو إلى نظام الحكم الإسلامي وتطبيق ألشريعة وهناك من يدافع عن الدولة ألقطرية وآخرون ينادون بالدولة ألقومية .

كذلك يحتدم الصراع حول مفاهيم مركزية عديدة، منها - مثلاً - موضوع حقوق الإنسان وحقوق المرأة والعلاقات الأسرية والقيم الاجتماعية وغيرها. الحقيقة أن هذه القضايا جميعها وكثير غيرها، له ارتباط مباشر قريب أو بعيد بموضوع ألهوية ذلك أن الهوية هي مجموعة الخصوصيات التي تميز مجتمعاً ما أو ثقافة ما وتجعل هذا المجتمع يتقبل بعض المفاهيم والقيم ويرفض بعضها ألآخر إنها مرجعية للتعريف وجواب لسؤال في غاية الأهمية حول تعريف الذات وتحديدها.

لذلك فإن مفهوم الهوية يشكل مفهوماً مركزياً نستطيع أن نطل من خلاله على ساحة المتغيرات الفكرية والسياسية والاجتماعية برؤية شمولية متكاملة.

إن إشكالية ألهوية كقضية اجتماعية ثقافية هي إشكالية حديثة التبلور في الفكر الإسلامي والفكر العالمي على السواء فقد كان سؤال الهوية في الفكر الإسلامي سؤالاً فلسفياً ينتمي إلى المنطق والميتافيزيقا دون السياسة.

لذلك فإن طرح هذه الإشكالية النظرية للبحث والتداول في الفكر الإسلامي الحديث يعود إلى العقدين الأخيرين تحديداً، حيث ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات التي تعالج إشكالية الهوية في الفكر ا الاسلامي ألمعاصر لكن ذلك لا يعني أن هذه الإشكالية هي وليدة العقدين الأخيرين فقط، بل هي تعود في جذورها إلى لحظة تشكل الفكر الاسلامي ألمعاصر ذلك أن هذا ألفكر بحكم ظروف نشأته ألتاريخية قد ولد مرهوناً بسؤال يرتبط بإدراك الذات وإدراك الآخر وعلاقة الذات بالأخر وهذا ما يجعل من سؤال الهوية سؤالاً مركزياً يقدم منظوراً واسعاً لرؤية الفكر الاسلامي الحديث وعبر مراحل تطوره المختلفة واتجاهاته المتباينة التي تتباين من حيث الجوهر في موقفها من الهوية وتجليات هذا الموقف في إدراكها لذاتها وللعالم من حولها. الصيغة الأخرى لسؤال الهوية في الفكر الاسلامي المعاصر نجده مطروحاً لدى المفكرين القوميين الذين انشغلوا في محاولاتهم لتحديد مضمون الهوية القومية العربية لتكون بديلاً للهوية ألإسلامية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- لتبرير دعواتهم إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وترك فكرة الدولة القائمة على أساس ديني وإنشائها على أساس قومي، كما نجد ذلك واضحاً لدى ساطع الحصري.

ب- للدفاع عن هذه الهوية القومية ضد التيارات الإيديولوجية المنافسة التي عايشت الفكر القومي في القرن العشرين،كما نجد ذلك عند ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي، لكننا لن نتوقف أمام مفهوم الهوية القومية إلا بالقدر الذي تفرضه ألدراسة لأنها ليست مجال بحثنا هذا وعليه وسنتوقف في هده الورقة العلمية على المحاور الاتية:

- سؤال الهوية في الثقافة الاسلامية المعاصرة
- السياق التاريخي لسؤال الهوية في الفكر الاسلامي
- الهوية الاسلامية بين العالمية والعولمة

اولا: سؤال الهوية في الثقافة الاسلامية المعاصرة

أ- مفهوم الهوية

الهوية ظاهرة انسانية ملازمة للكائن البشري تتحدد انطلاقا من الخصائص والسمات المميزة للأمة وعليه فالهوية تتحدد بناءا على الدلالات اللغوية ،و ألفلسفية والاجتماعية و ألتاريخية للمصطلح من دالك نجد ان الجرجاني ،عرفها بأنها الامر المتعلق من حيث امتيازه عن الاغبار، وهي عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود ،كما اننا نجدها عند الفارابي بأنها الشيء شخصه وخصوصياته ووجوده المنفرد الذي لا يقع فيه اشراك.[3]

إلى ذالك تعتبر الهوية نسبية و ليست ازلية ،وهي بهذا هوية متفتحة قابلة للتعديل ،والتكيف مع الهويات الأخرى .

ولد الوجود الاستعماري في الاقطار العربية والإسلامية شعورا ،بالإهانة والثورة نتج عن هدا الوضع نوع من الايدولوجيا ألضمنية لدى عامة السكان المسلمين حيث وجدت الثقافة والهوية الاسلامية نفسها امام تحدي كبير خارجي واجهته بالإصلاح والتغيير ثارة، وبالتقليد والرفض ثارة اخرى.[4]

سمح هدا الوضع بظهور وانبثاق وعي وطني ،مثل دالك رد فعل كل من جامعة الزيتونة بتونس ،والقرويين بفاس في الدفاع عن القيم الاساسية للهوية العربية الاسلامية ضد محاولات المسخ والتغريب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب - سؤال الهوية في الثقافة الاسلامية

عرفت المجتمعات العربية الاسلامية تحولات تميزن ثارة بالانكماش والقوقع، و بالتفجر ثارة اخرى

لقد اصبحت القيم العربية الاسلامية مهددة بالذوبان ،استفز هدا التحول رجال الفكر وفي مقدمتهم الجاحظ الذي الف كتاب البيان والتبيين ، ليشيد بفضيلة حسن البيان والبلاغة عند العرب، وكتاب البخلاء كتأليف هجائي في مثالب الفرس ،الى جانب دالك نجد التوجه الفكري للمعتزلة [5]، الدين وظفوا الفلسفة اليونانية العقلية للدفاع عن مقولات الدين الاسلامي وصولا الى الدولة العثمانية، والتي احس فيها العرب بخطر تدمير ركن اللغة في الهوية العربية الاسلامية بسبب سياسة التتريك او العثمنة [6].

لم يكن سؤال الهوية مقتصرا على التيار المحافظ، بل شمل ايضا التيار الواقعي المتشبع بالقيم و الافكار الغربية من دالك الر ئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة اعترض على عدة مبادرات تبنتها سلطات الحماية في تونس ، بحث رفض ان يرفع الحجاب عن المرأة المسلمة في ظل سياسة الفرنسة والاندماج ، ونجد الامر كدالك في الجزائر عند فرحات عباس الذي رفض التنازل عن الاحوال الشخصية الاسلامية مقابل تمتع الجزائريين بحقوق المواطنة الفرنسية[7].

مع سقوط وانهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، بدأت سيطرة القطب الواحد وبدا في الافق صور جديدة من الهيمنة، بدأت معها تظهر الايديولوجيات القومية والشعبوية وبدأت معظم الدول النامية تكيف اقتصادياتها مع متطلبات البنك الدولي وصندوق التقد الدولي، اللذان يمثلان صلبا الهيمنة العالمية الجديدة .

صاحب دالك مزيد من الفقر، ومزيد من اتساع الهوة بين الطبقات الرأسمالية الناشئة ، والطبقة الوسطى التي اخدت منها ادوارها في الريادة والقيادة انجر عنه تفاقم عديد الخلافات الاقليمية والعرقية و الدينية .

مع بروز ايديولوجيات محافظة اصبح معها الدين ملاذا للاحتماء والمقاومة ،مع الرجوع الى التقاليد والى كل ما هو قديم، خلاصا للاحتماء من ضرر الحداثة وهكذا برز للعلن سؤال الهوية خاصة في المجتمعات العربية الاسلامية ليعلن ان التاريخ والإيديولوجيات لم تنتهيا بعد [8].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا : السياق التاريخي لسؤال الهوية في الفكر الاسلامي

يواجه المسلمون اليوم ازمات عديدة ذات علاقة بالتنمية والهيمنة في مختلف الميادين سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، تضخمت ارهاصاتها مع ظاهرة العولمة وتداعياتها.

لا يمكن الحديث عن سؤال الهوية في الفكر الاسلامي دون الوقوف على سياقه التاريخي وعبر التوقف عند تجارب الماضي ومحاولة استذكار قرنين من الزمن بكل نجاحاتها ، وإخفاقاتها ، دروسها ، وتجاربها ، بداية من عصر النهضة العربية الى خروج العرب والمسلمين من دائرة الاستعمار الى مرحلة الاستقلال الوطني والدولة الوطنية

مر العرب والمسلمون بمرحلة من الاحتكاك مع الغرب في اطار البحث عن فرصة للانعتاق من حالة التخلف والسبات ، عبر حملة نابليون على مصر وملامسة افكار الحرية والإخاء والمساواة ، نتج عنه نوع من التجاوب الفكري والحضاري بين امة تسير نحو الحداثة وأخرى تتلمس طريق النهضة [9].

بدأت معها مسيرة البحث عن سبل النهضة والاقتباس من الغرب ، التي لم تنته حتى الان من نمط المعيشة حتى اعلى درجات التكنولوجيا

لقد افاق العقل العربي والإسلامي وتبلورت فيه تيارات فكرية في اطار النهضة الحديثة ، تشكلت عبر كتابات عن الاصلاح والتجديد وخطاب نهضوي واعد

رأى المفكرون الاوائل ان الحداثة اساس النهضة ،فاتجهوا الى اوربا وحاولوا تطبيق انموذج للتقدم جسده **رفاعة الطهطاوي ، وخير الدين التونسي** وغيرهم [10]

على الرغم من هدا الاعجاب بالغرب إلا ان المفكرين العرب والمسلمين انقسموا بين اعداء لهدا الغرب ومعجبين به ، لكن ظل سؤال الهوية مطروحا فقد عجزت الدولة الوطنية عن توفير الامن والاستقرار ، فاختفت العدالة وغابت الحرية ، وتفاقمت الصراعات وازدادت التبعية للغرب مع انتشار الفقر والبطالة والأمية

انتقل العرب والمسلمون الى مرحلة جديدة خاضوا فيها الصراع الايديولوجي مع التيارات الاخرى

ان ازمة الهوية التي مر بها العرب والمسلمون مرتبطة بالأساس بجوهر ازمة الفكر القومي والإسلامي وان النموذج الجديد للتنمية الحضارية ،هو الاخد بالتجديد والأصيل والإبداع ، في اطار التنمية الحضارية بإحداث مشروع حضاري عربي اسلامي بشكل حقيقي [11]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثا: الهوية الاسلامية بين العالمية والعولمة

جاءت احداث 11 سبتمبر 2001 لتصدير حالة جديدة نحو الارهاب الدولي والأصولية الاسلامية ،وتصدير الاسلام بأنه دين عنف فتحولت المواجهة الى صراع حضاري بين الرأسمالية الغربية والإسلام

تتزايد يوما بعد يوم شكوك ومخاوف تجاه العولمة، منها شكوك عبارة عن تحديات امام العرب والمسلمين بشكل خاص.

يرى المفكر السيد يسين ان اخطر التحديات التي تواجه العرب والمسلمين هي ارتفاع معدلات الامية ،من دالك ان اكثر من نصف السكان لا يستطيعوا ممارسة التكنولوجيا الحديثة ، فالعالم العربي والإسلامي يحتاج الى ثورة تعليمية كاملة، ومعها اعادة تأسيس مؤسسات التعليم العالي ،شكلا ومضمونا ورفع مستويات التعليم والبحث العلمي .[12]

ان مخاطر العولمة على الهوية الاسلامية ترتبط فيما بينها بوحدة الوطن والتاريخ والمصير المشترك والحضارة، مع انتشار مفاهيم الذكر والأنثى ،والسفور والحجاب، والتعليم الاسلامي ،والمناهج الدراسية.[13]

تسهم الفضائيات في تنمية عديد التطلعات، حيث تثير الشعوب العربية والإسلامية بالحرمان عند مقارنة المجتمع العربي الاسلامي بالمجتمعات المتقدمة حيث يظهر المجتمع العربي الاسلامي انه محروم ومنسلخ من ذاته .

ان اختراق العولمة للعالم الاسلامي يجعلها تتقاطع مع قيم وتقاليد الاسلام، فهي اي العولمة تخدم وسائل عبر الانتشار الثقافي، وسياسات التحديث ،والدعوة الى الديمقراطية وحقوق الانسان.

ان العرب والمسلمون اليوم هم اليوم اكثر من اي وقت مضى بحاجة الى وقفة يشترك فيها الجميع ،لإقامة حوار عقلاني ووضع استراتيجية واضحة بعيدا عن القطرية والنزعة الضيقة ، يكون دالك عبر مواجهة الاخر لحماية الهوية الاسلامية من سياسات قوى العولمة وتدخلاتها في شؤون العرب ،والمسلمين من الحياة الخاصة الى الدين والشريعة، و التقاليد، والمناهج الدراسية، و الديمقراطية ، والاقتصاد ، وحقوق الانسان .[14]

ان تحصين الفرد العربي المسلم وإدراك اهمية الخصوصية الاسلامية ،من تقاليد وثقافة عربية اسلامية ، تؤدي الى خلق جيل مؤمن بالوطن متشبع برسالة الاسلام ودور الحضارة ، وعليه من هدا المنظور لا يمكن للمسلمين في الحاضر ان ينسلخوا عن الماضي والتراث وهدا كله يتطلب وضع استراتيجية تحافظ معها الامة على هويتها ،وثقافتها رغم الغزو الثقافي والبث الفضائي والمعلوماتي بالمحافظة على الخصوصية الوطنية والقومية[15]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ان سبل مواجهة الهوية الاسلامية في ظل العولمة ، يقوم على اساس اقامة المشروع الحضاري الذي هو مصير العرب والمسلمين وسر قوتهم في عالم التكتلات الدولية يجمع بين :

1 - المحتوى الديمقراطي

2 - العدالة الاجتماعية

3 - التنمية المستقلة

4 - الاستقلال الوطني

5 - التجدد الحضاري[16]

الخاتمة

إن البعد الهوياتي في الفكر الإسلامي عصر العولمة يحتاج الى حوار وطني وقومي شامل ،لتوضيح القضايا المطروحة، فالتنافس حول هدا البعد اقتصاديا، ارتبط بقوة الدولة وبقدرتها على مواجهة العولمة بتجديد الطاقات عبر مواجهة إرهاصات القرن الواحد والعشرين،والتغييرات الكبيرة، التي يشهدها العالم ودالك بمحاولة ترتيب الاوضاع الداخلية.

إن العرب والمسلمون بحاجة ماسة اليوم أكثر من أي وقت مضى للتمسك بثوابت عربية إسلامية أصيلة ،في مواجهة تحديات العصر، وتبني نظرة معاصرة اتجاهها دون الانغلاق يكون هدا ضمن محددات الأمة وحضارتها وأصالتها، وتاريخها، وهويتها ،مع الانفتاح على روح العصر دون التخلي عن هويتها الروحية والانسلاخ من ذاتها .

لقد عايش العرب والمسلمون عدة ايديولوجيات قامت على سحق الفرد باسم الجماعة، فصادرت حرية التعبير والتفكير، والمعتقد ، فانعدم الخلق والإبداع وساد التكلس ، وانتعشت القيم المتردية معها تاكد ان المقومات الحضارية حق مقدس.

إن إرجاع ظاهرة البعد الهوياتي يمكن إرجاعها إلى عناصرها الأولية القائمة على الأمة والقطر والمواطن، فالعرب والمسلمون ينتمون الى امة عربية وإسلامية واحدة ،علاقاتها متشابكة ومتداخلة ،تطرح إشكالية الحق والواجب وعليه لا سبيل الى تجاوز هده الإشكالية إلا الديمقراطية، وهي في مفهومها الإقرار بوجود الأخر، والتعايش معه دون تجاهل اي عنصر وجود العنصر الأخر، أو التغافل عن حقوقه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد تميز الاستعمار الفرنسي خاصة في أقطار المغرب العربي بمحاولاته محو هوية الشعب من خلال عديد السياسات كمشروع الإدماج، والتجنيس والظهير البربري ،والمؤتمر الافخارستي، الخ وهي كلها مشاريع خلفت اثارا ثقافية ما زالت تهدد كيان أقطار المغرب العربي ،ولا أمل في القضاء على دالك إلا بمشروع ثقافي وطني مضاد.

الإحالات و الهوامش :

1- **سالم الحداد ،صراع الهوية بين الانا والأخر المغرب العربي نموذجا ، الاطلسية للنشر ، تونس** 2000، **ص** 14

2- **مثال فوكوياما نهاية التاريخ ،وهنتفتن صدام الحضارات**

3- **حفيظ الطبابي، صراع الهوية الزيتونة والزيتونيون في معترك النضال الوطني والاجتماعي، اعمال الندوة الدولية الحادية عشر حول الزيتونة الدين وا لمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية ،تونس طبعة ثانية** 2006 ،**ص ص** 420 421

4- **مفيد الزيدي، العرب والعولمة في عالم متغير، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الاخضر، طرابلس، اكتوبر** 2005 **ص** 88

5- **سالم الحداد، صراع الهوية بين الانا والأخر المغرب العربي نموذجا ، المرجع السابق ص** 18

6- **نفسه**

7- **نفسه ص ص** 14 و15

8- **مفيد الزيدي، العرب والعولمة في عالم متغير ص** 88

9- **نفسه**

10- **نفسه**

11- **عبد الخالق عبد الله ، ست اطروحات حول كيفية التعامل مع العولمة ، مجلة البحرين الثقافية ، السنة 7 ، العدد 26 اكتوبر 2000**

12- **السيد يسين، العولمة والطريق الثالث، القاهرة الطبعة الثانية ، ص ص** 148 149

13- **مفيد الزيدي، المرجع السابق ص** 154

14- **نفسه**

15- **نفسه**

16- **خير الدين ،نسيب العرب وتحديات القرن الجديد، الموسم الثقافي للمركز العالمي لأبحاث ودراسات الكتاب الاخضر، طرابلس** 2002 **ص**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com